مدارس الأُمة في المانيا

في نصف القرن الأخير تقدمت الأُمة الالمانية تقدماً عظيماً نادر المثال في تاريخ الشعوب وارتقت الى ارفع الدرجات في العلوم والمعارف والصنائع والفنون والحياة العائلية والاجتماعية والسياسية الى غير ذلك وهذا التقدم السريع يعزى الى اسباب اخصها مدارسها والمدارس العالية من جامعة وكلية وفنية والمدارس الابتدائية البسيطة التي يدخل فيها ويخرج منها تسعة اعشار اولاد الشعب. الى هذه المدارس الاخيرة وجهت الامة الالمانية من عهد بعيد مزيد اهتمامها ورعايتها عالمة انهُ اذا زرع في هذه الحقول بزور العلم والفضيلة والاجتهاد والامانة ومحبة الوطن والاعتماد على النفس لا بد ان تنمو وتزهو وتاتي باثمار يانعة تعود بالخير العميم على الامة والوطن. ولقد اصاب وأجاد احد الفرنسويين بقوله للالمان بعد حرب السبعين "لم تغلبونا انتم انما غلبنا امهاتكم ومدارسكم"

ان تاريخ المدارس والتدريس في المانيا لحد زمن الاصلاح الديني الذي نشأ في القرن السادس عشر سقيم جدا. فلم يكن فيها لحد ذلك الحين الاَّ مدارس قليلة العدد مبنية على الغالب الى جانب بعض الاديرة وكان يعلَّم فيها القراءة والكتابة وما يلزم لممارسة الخدمة الدينية في الكنائس وكان اكثر المدرسين وقتئذٍ على جانب عظيم من الجهل والجفاوة يعاملون الصغار احياناً معاملة بربرية

ثم قام المصلحون وفي مقدمتهم لوثيروس الشهير واقنعوا الامراء والحكام والاهلين بان مسئوليتهم عند الله عظيمة من جهة تعليم الاحداث وتهذيبهم وبوجوب فتح مدارس كثيرة في كل مدينة وقرية فوقعت مناداتهم احسن موقع وشيدت الوف من المدارس وتحسنت اساليب التعليم نوعاً. ولكد الطالع انتشبت بعد ذلك الحروب الدينية الدموية التي دامت عشرات من السنين ودمرت البلاد تدميراً وصيرتها خراباً بلقعاً فذهبت بكل حياة ادبية وعقلية وتحت آثار المدارس الحديثة النشأة من البلاد. ثم بعد ان القت الحرب اوزارها وساد السلام لم يستطع الاهالي ارجاع ما سلف الاَّ رويداً رويداً نظراً لفقرهم واضطرارهم الى ترميم ما تهدم من البيوت. غير ان الميل الى فتح المدارس كان قد غُرس في الصدور ومن ذلك الحين اخذ امراء المانيا ولاسيما ملوك بروسيا يهتمون مزيد الاهتمام بالمدارس وفريدرك الكبير اوَّل من جعل التعليم الزاميًّا في بلاده والَّف بمساعدة احد العلماء نظاماً مدرسيًّا لا يزال يعمل بهِ في اهم موادهِ. وقد قام في بلاد المانيا افاضل كثيرون نظير كوميتيوس وبستالوتسي وديسترفك وضحوا النفس والنفيس في تحسين المدارس وترقية شأنها واختراع احسن الاساليب للتعليم

ودرس طبائع الاولاد واحوالهم النفسية درساً مدققاً والفوا من ذلك كله علماً نفسياً في بابه سموهُ البيداغوجيا ويتدرج تحتهُ علم البسخولوجيا (علم الظواهر العقلية والنفسية) واصول التربية والتعليم واساليب التعليم القديمة والحديثة وتاريخ المدارس والتدريس يدرسهُ المعلمون كما يدرس المهندس فن البناء وكما يدرس الطبيب فن الطب

ومما تمتاز بهِ المانيا تهذيب معلميها احسن تهذيب في مدارس خصوصية سميت سمينياري

وقد علم بالاختبار ان ليس كل عالم او علاَّمة يصلح ان يكون معلماً كما ان ليس كل من عندهُ مواد البناء كالحجارة والجير والرمل يصلح ان يسمَّى بناء ماهراً. ولقد اصاب من قال "كم من علاَّمة كبئر مختوم بلا نفع وكم من عويلم كنهر جارٍ كثير الفائدة" . ان العالم يتكلم غالباً امام الاولاد الصغار عن افكارهِ الرفيعة بكلام يعلو عن مداركهم وافهامهم فلا يستفيدون منهُ وان استفاد احد شيئاً فرمية من غير رامٍ . وقد وجد ايضاً بالاختبار ان تدريس الاولاد كما يجب ان يكون من اصعب الامور . وهذه الصناعة قلما يتعلمها الانسان من تلقاء نفسهِ دون ان يسقط في اغلاط كثيرة سقط فيها غيرهُ قبلهُ ويختبر اختبارات تذهب بلذتهِ من التعليم وذلك كان الداعي قبل نحو مئة سنة الى انشاء مدارس خصوصية لتعليم المعلمين افرزت عن سائر المدارس العالية . من هذه المدارس نيف وسبعون مدرسة في بلاد المانيا يدخلها التلامذة في سن الخامسة عشرة ويدرسون فيها خمس سنوات متوالية العلوم الدينية والطبيعية والرياضية واللغوية والموسيقى والتصوير وفن التعليم علماً وعملاً والى جانب كلٍّ منها مدرسة ابتدائية يقبل فيها اولاد الفقراء مجاناً وفيها يتمرَّن المنتهون في السنة الاخيرة على التعليم بارشاد معلمين ماهرين في التدريس يعلِّمون احياناً امام التلاميذ مثائل لتمثل بها ويطلب من كلٍّ من التلامذة ان يكتب مثائل في كل فروع التعليم كلمة فكلمة ثم يلقيها على استاذهِ ورفاقهِ

اما المدارس الابتدائية في المانيا فقد بلغت درجة عالية من الكمال وهي جديرة بان يتمثل بها وقد شادتها الحكومة الالمانية على نفقتها مراعية صحة الاولاد وراحتهم ورفاهتهم وجهزتها احسن تجهيز بما لا غنىً عنهُ في تعليم الاولاد نظير المقاعد والمكاتب والخرائط والالواح وغيرها وطبعت الكتب المدرسية في مطابعها وجعلت اثمانها رخيصة جداً حتى لا يتعذر على اولاد الفقراء اقتناؤها . والمعلمون العاملون فيها هم مستخدمو الحكومة يتناولون رواتبهم منها وقد حفظت لنفسها حق مراقبة المدارس والمعلمين . والتعلم فيها الزاميٌّ فمن لا يرسل ابنهُ الى المدرسة يقع تحت طائلة العقاب. ويدخل فيها الاولاد في سن السادسة او السابعة وينتهون في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة وساعات التعليم فيها اربع قبل الظهر واثنتان بعدهُ ما عدا

الاربعاء والسبت وفي كل مدرسة لائحة سياق الدروس من السنة الاولى الى الاخيرة ويطلب من المعلم في بداءة السنة ان يعين الدروس المزمع ان يدرّسها لكل اسبوع ولكل يوم وساعة. ويقتضي ان يستعد استعداداً كافياً لكل درس. ويعاب على المعلم ان يتقيد بالكتاب او ان يقرأ الدرس منهُ قراءة. ومما يعنى بهِ كثيراً تعليم الاحداث والغالب ان يوكل تعليمهم لامهر المعلمين واكثرهم اختباراً ولا يقصد بالتعليم دس مقدار معين من العلوم والمعارف في عقول التلامذة بل تهذيب كل قوى الانسان الادبية والعقلية والبدنية وايقاظ الفضائل والمواهب المكنونة في التلاميذ وانماؤها واماتة الاميال الفاسدة والافكار الاثيمة. ونظراً لتدين الشعب الالماني جعل للعلم الديني المقام الاول في كل المدارس الابتدائية وفضلاً عن ذلك يعلَّم فيها لغة البلاد جيداً من قراءة وصرف ونحو وانشاء وخط وحساب ومبادئ التاريخ والجغرافية والطبيعيات والترتيل والتصوير والرياضة البدنية. ويندر ان يعلم فيها لغة اجنبية كالافرنسية او الانكليزية ويبذل المعلمون غاية الجهد في جعل التعليم ملذاً ومفرحاً للاولاد

واساليب التدريس الحديثة تختلف اختلافاً كلياً عن الاساليب القديمة ففي القراءة مثلاً وجدوا ان ذكر اسماء الحروف وقت التهجئة يلقي الاشكال في ذهن الولد الصغير ولكن يسهل عليهِ القراءة اذا ذكرت لهُ اصوات الحروف فقط. وكانوا يشرعون في تعليم الحساب في سنة التعليم الثالثة او الرابعة بجمع اعداد كبيرة فصاروا يبدأون في سنة التعليم الاولى بتعليم الاعداد الاولى من الواحد الى التسعة وبتعليم الجمع والطرح والضرب باعداد قليلة ويرى الصغار كل ما يحسبونهُ ممثلاً امامهم على الاصابع او على محسبة (آلة حسابية) وفي الجغرافية كانوا يبدأون بالكرة الارضية فالقارات فالبحار فصاروا يبدأون بالمدرسة فالبلدة فالمدينة فالولاية فالمملكة فالممالك فالكرة الارضية. وفي الخط لا يبدأ بكتابة حروف وكلمات بل تمرَّن اليد اولاً ساعات متوالية على رسم خطوط مستقيمة ومنحنية ودوائر وغيرها وقس على ذلك في سائر العلوم. وقد وضعت للتعليم هذه القاعدة الذهبية وهي: من السهل الى الصعب ومن القريب الى البعيد ومن البسيط الى المركب ومن المعلوم الى المجهول ومن النظري الى العقلي

ومما يسر ويبهج ان تنظر الى مدرسة حسنة الترتيب فيها معلم امين يحترمهُ التلاميذ ويحبونهُ كاب حنون وكلهم عيون ناظرة واذان صاغية يلتقطون من فيهِ درر الفوائد والآداب والفضائل

وحبذا لو كان اولياء الامور في بلادنا يهتمون بالمدارس الابتدائية ويختارون لها احسن النظامات المدرسية عند ارقى الامم الاوربية ويهتمون باعداد المعلمين في احسن المدارس فترقى المدارس الابتدائية وبها ترقى الامة والوطن بيت لحم ابرهيم م عطا